بسم الله الرحمن الرحيم

٦ / ٧ / ١٤٤٧هـ

بين ليل الشباب، وصبح المشيب!

الحمد لله...

زمن الشبابُ رَكْضٌ في ميدان التصابي.

يمكث المرء في عنفوان شبابه، يركض في ميدان التصابي، ويجني ثمراتِ الملاهي، فالشبابُ باكورة الحياة، ولكنه مَظِنةُ الغفلات، وعُمْر الشباب مَوقِعَة الجهل، ومطية الذنوب، فالحذرُ في زمن الشباب واجب، والتوقي في أزمانه متحتم، وكما قيل: "سُكْر الشباب، أشدُّ من سُكر الشراب"، فسِنّ الشباب قد يَدخُل فيه العمى عن الرُّشد، والصَمَم عن العَذْل، فالشاب مع اعتداده بنفسه قد لا يسمع النصح، ولا يبالي باللوم والتقريع؛ لأن البعض لا يُصغي ولا يَقبَل، فكأن أذنَه مُصمَتةٌ عن الموعظة.

وليس في هذا عذرٌ للشاب أن يتخذ من عماه حُجَّة، ولا من صممه ذريعة، بل يجب على الشاب أن يعرف

الداء حتى يحذَر، ولو كانت عجلة الشاب مُسَوِّغًا بأن يتمادى في الخطأ لما خوطب الشاب بالنصيحة، ولا أُمر بالحلم، فمن احتج بطيشه على خطئه فقد جمع بين الذنب وتبرير الذنب، وذلك أولى الناس باللوم لا بالعذر.

عمر يدعو الشباب في المعضلات.

ومن الشباب اليوم من تعقّل وعقل، ورشد واسترشد، فما أكثر شباب هذا العصر من سبق حلمُه سِنَّه، ونضج عقلُه قبل أوانه، فكان كزيد بن ثابت يشهد الخندق وعمره خمسَ عشرةَ سنة، ويحضر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العرضةَ الأخيرة للقرآن يوم دارسه جبريل وعمره ثمانيَ عشرةَ سنة، ويكلفه أبو بكر بأخطر مهمة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي مهمة جمع القرآن من الصدور والسطور وعمره قارب العشرين سنة. هذا عن واحد من شباب الصحابة، كيف بأسامة بنِ زيد قاد جيشًا فيه أبو بكر وعمر، وعمره ثماني عشرة سنة، وكان ابن شهاب يُقرِّب الشباب، ويقول لهم: "لا تحقروا أنفسكم لحداثة

أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغي حِدَّة عقولهم"[1].

بداية طلائع المشيب.

إن العمر سُلَّم لا قفز فيه، درجاتُه متتابعة، فبعد الشباب يأتي أمرٌ لا طارئ ولا غريب، بل هو شاهد عدل على ما مضى، إنه الشيب والمشيب﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ فتبدوا في الرأس طلائع المشيب، ويبدأ الشيب يأكل بعنان الشباب، يقف أمام المرآه، تخاصمه كلما نظر إليها، فلا تجامل وجهَه وقد ذهب بريقُ شبابه، فلاحت الشعرات البيض، وجعلت تُفرّخ وتُبيض، فعلاه غبار وقائع الدهر، فبينما هو راقد في ليل شبابه إذا به يوقظه صبح المشيب.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/٣٦٣)

المشيب ليس انكسارًا في العمر.

لكن المبهج في الأمر أن لمشيب ليس هو انكسارُ العمر، بل انتقالٌ من القوة إلى البصيرة، ومن كثرة الفعل إلى جودة الاختيار، ومن اندفاع اللحظة إلى نظر العاقبة.

ألا لِيعْلم من طوى مراحلَ الشباب أن الشيب حلية العقل، وسمة الوقار، "فالشيب ذهبٌ صَقَلته الأيام، وفضةٌ سبكتها الأعوام" (١).

فالشيب سفينة مخرت عباب البحر لسنين متطاولة تكاد تقرب من الساحل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبشرًا: "مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإسلام كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ" (٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشيب:

"وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَرُفِعَ له بها درجة" (٣).

---

(١) التمثيل والمحاضرة، للثعالبي (ص:٣٨٣).

(٢) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) رواه ابن حبان، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

الشيب قبل بلوغ سن المشيب.

فإذا كان المشيب -على هذا الوجه- انتقالًا من القوة إلى البصيرة، ومن كثرة الفعل إلى جودة الاختيار، وكانت له هذه المنزلة من النور والرفعة في ميزان الشرع، علمنا أن الشيب ليس مقصورًا على عدد السنين، ولا مرتبطًا بتقادُم الأعمار وحده؛ إذ العبرة في حقيقته بما يمرّ على القلب قبل الرأس، وبما يثقل الروح قبل الجسد.

ومن هنا قيل: إن الشيب ليس علامةً لازمة على كِبَر السن؛ فقد يشيب رأس المرء وهو بعدُ في عنفوان شبابه، لا لطول عيشٍ، ولكن لثِقَل ما حُمِّل، فقد يشيب رأس المرء وهو لا يزال في الشباب:

-فمن كثرت عليه الهموم والأحزان كثر شيبه، قال المناوي: "والهموم والأحزان إذا تقاحمت على الإنسان أسرع إليه الشيب في غير أوان"[1]، فالهمّ ليس مجرّد شعور عابر، بل عبءٌ مستنزِف، يأكل من العمر كما تأكل

(١) فيض القدير (١٦٨/٤)

النار من الحطب، ويُعجِّل آثار الكِبَر قبل حينها. فالواجب على العاقل أن يحذر من استيطان الهمّ قلبَه؛ فإن القلب إذا ثُقِّل بالغمّ ضاق عن الذكر، وإذا ضاق عن الذكر اسودّ النهار قبل الليل.

- ومن أسباب الشيب قبل أوانه: الروعُ والخوفُ إذا جاوزا حدَّ الاعتدال، واستوطنا القلب بلا تسكين ولا رجاء.

وقد حكى الزمخشري أن شابًا نام وهو مسود الشعر، وأصبح أبيض الرأس واللحية، فسُئل عن ذلك فقال: "أُريتُ القيامة، والناس يُقتادون بالسلاسل إلى النار"، ثم قال: "فمن هول ذلك أصبحتُ كما ترون"[1]، فالخوف الزائد يَشلُّ النفس، ويُبدِّل الفطرة، وليس المطلوب أن ترى القيامة بعين الرعب، بل أن تراها بعين الاستعداد، فالخوف إن لم يُقِمك أقعدك، وإن لم يُهذّبْك أتلفك.

---

(١) فيض القدير (١٦٨/٤)

الشيب رسالة تنبيه، لا صيحةُ فزع!

إن الشيب إذا تكاثر، والسواد إذا تحاسر، فهي إشارةٌ إلى الانتباه، وعلامةٌ على قرب الانتهاء، قال تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، قال ابن عباس: "النذير الشيب".

وليس معنى وصفُ الشيب بالنذير أن يعيش المرء مذعورًا منقبضًا قَلِقًا، يطوي أيامه بالخوف، ويُغلِق على نفسه أبواب الفرح؛ فذلك فهمٌ قبيح لمعنى النذير، إنما الشيب رسالة تنبيه، لا صيحةُ فزع، وإيقاظُ ضمير لا رجفةُ قلب، فقول ابن عباس: "النذير الشيب"، فما ذاك ليُشيع الرعب، بل ليُحكِم البوصلة، أن يتحول العمر من طول أملٍ إلى حُسن عمل، ومن لهوٍ مُفرِط إلى فرحِ موزون، ولهذا قال مسروق: "إذا بلغ أحدُكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله"[1]، ولم يقل: فليعتزل الحياة، أو ليحبس نفسه عن مباحاتها؛ وإنما ليُحسِن الاختيار، وليزن اللذة

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤٩٠)

بالعاقبة، والمرح بالمسؤولية.

نزل المشيب فمرحبا بالنازل، إن كان ساءك طالعات بياضه، فلقد كساك بذاك ثوبَ الفاضل، لا تبكِين على الشباب وفقدِه، لكن على الفعل القبيح الحاصل، قدم لنفسك قبل موتك صالحًا، فالموت أسرع من نزول الهاطل[1].

وكُتِبَ في ٦ / ٧ / ١٤٤٧

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد

(١) اللطائف والظرائف، للثعالبي (ص:٢٥٨).